صورة فى المرآة

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

إن كل شيء ممكن ولا سيما فى هذه الأيام . وليس لأحد أن يكذب إمكان حدوث شيء بعد أن شهد هذا العصر ما شهد من صنوف المخترعات والمبتدعات . فمن ذا الذى كان يحلم أن الانسان قد يكون جالساً إلى مكتبه بالقاهرة ، فيسمع موسيقى دار الأوبرا فى باريس أو ڤينا ؟ وينصت إلى نجوى النظارة وتصفيقهم ، حتى كأنه جالس معهم هناك يسمع ما يسمعون ويشهد ما يشهدون ؟ وما هى إلا خطوة واحدة ثم يستطيع الانسان أن يسمع ويرى فى آن واحد . فيتيسر له عند ذلك أن يرى بعينه أهل باريس أو ڤينا أو سواها ، وهم يتمايلون للموسيقى ويعجبون بالراقصة أو المغنية ، وأن يرى المسرح بما فوقه من الفتن الشهية ، ولن يحس الناس عند ذلك بوجود المسافات ولا بحدود الدول والبلدان . وهكذا أرجو إذا أنا وصفت للقراء ما أوصلنى إليه الدأب ، ومكننى منه المدرس من الاختراع ، ألا يكذبنى مكذب ، فما غرابة قصتى هذه بمنقصة من قدرها ، إذ صارت الحقائق أعجب من صور الخيال ، وأصبح إدراك المشاهد أعسر على الذهن من تصور الخيالات ، فبينا يرى الانسان الآلة المحدثة بين يديه حقيقة ماثلة ملموسة إذا به يراها عند غاية الاستعصاء والغموض والتأبى

ولقد وفقنى الله لاختراع آلة عجيبة ، ولكنها من مثل تلك الآلات المحدثة التى ذكرتها آنفاً تراها وتلمسها ، وتؤمن بأنها حيالك ماثلة موجودة . ثم تحار فى معرفة كنهها والغوص إلى موضع سرها . هى مرآة لا أكثر ولا أعظم ، ولا يختلف ظاهرها عن المرآة المعتادة إلا فى أنه يحيط بها إطار به لوالب مختلفة لتحريكها وتحديد موضعها . ولكنها فى حقيقتها فذة فريدة ، إذ أنها لا تنقل إلى الرائى صورة وجهه إذا نظر اليها ، بل لقد يظهر له فيها إذا وضعها أمام عينيه شكل شخص آخر ، أو شكل بعض الحيوان ، أو شكل كائن آخر من الكائنات ، ولعلها تفزع من لا عهد له بها ولا دراية له بسرها ؛ فقد تنظر اليها حسناء لترى هل دهان شفتيها لا يزال هناك لم تخطفه الشمس ولم تمحه بنان النسيم ، فترتاع إذ تجد المرآة تبرز لها صورة كريهة كصورة قرد مثلاً ، أو كصورة عجوز شوهاء . وقد ينظر اليها فتى من الفتيان ليتحقق من أن سحر عينيه لا يزال على عهده به ، وأن موضع رباط رقبته لا يزال حيث رآه آخر مرة فى آخر مرآة مر بها من تلك الزجاجات المنصوبة على جوانب الحوانيت والدكاكين الكبرى فتظهر له صورة أخرى مثل صورة فتاة لعوب ، أو صورة تيس أو حيوان آخر مما تعارف الرجال على كراهة التشبه به والظهور فى مظهره . ولكن الانسان إذا عرف أن هذه المرآة لا تظهر للرائى صورته ، لم يلتمس أن يرى فيها صورة نفسه ، وبذلك يحفظ نفسه من الألم الذى قد يصيب من يجهل أمرها وسرها . فان سر تلك المرآة أنها لا تلتقط إلا أشعة الضوء القديمة التى مضى على سيرها آلاف السنين على الأقل . وهذا الأمر يحتاج إلى شيء من التفسير ، ولكنى سأشرحه شرحاً يسيراً حتى لا أخرج بالقارئ طويلاً عن صلب القصة

أنت تعلم أن المادة لا تفنى ، وأن الطاقة لا تنعدم ، فهذا يعرفه كل من درس أوليات العلم . وتعلم أن شعاع النور طاقة ، والنور على ذلك لا ينعدم . فاذا سار الشعاع الضوئى فى الفضاء فانه يظل سائراً إلى أبد الدهر إلا إذا تحول إلى طاقة أخرى . وتعلم أن الانسان يرى الأشياء لأن الضوء يقع عليها ثم ينعكس منها إلى عينه فيحمل صورة الأشياء إلى العين . فاذا سار الشعاع المنعكس إلى أبعد الجهات أمكن أن يحمل صورة الأشياء إلى تلك الجهات البعيدة . والضوء كذلك يسافر بسرعة هائلة ، فهو يحمل الصور بتلك السرعة ، ولكن المسافة إذا كانت بعيدة جداً لم يستطع الضوء أن يقطعها إلا بعد مدة قد تكون طويلة ، فان

للحاكم ، ويحمل اليه الأموال الموصى بها ، وكانت تبلغ نحو مائتى ألف دينار بين نقد ومتاع ، فقرأ الحاكم الوصية ورد المال إلى أهله ؛ ودلل بذلك على صفة من أخص صفاته ، هى العفة عن مال الرعية ، والزهد فى المال بصفة عامة ؛ وسترى أنه يدلل على هذه الخلة فى مواطن كثيرة

للبحث بقية

محمد عبد الله عنان
المحامى

النقل ممنوع

شعاع الضوء يأتى إلى الأرض من بعض الكواكب فى أعوام وقرون ، ومنها ما يصل إلى الأرض من كوكب بعيد فى آلاف السنين

هذه كلها مقدمات ، وهناك بعد ذلك أمر آخر ، وهو أشد استعصاء على الفهم ، وذلك أننى قد كشفت أن الضوء لا يسير فى خط مستقيم كل الاستقامة ، بل إنه منحن قليلاً ، فاذا سار منحنياً على هذا النمط تكونت من سيره دائرة ، لأن الدائرة تتكون من خط منحن انحناء منتظما سائراً على نمط واحد . فاذا سار شعاع فوقع على شىء ثم انعكس إلى الفضاء ، فانه يسير حاملا صورة الشىء الذى وقع عليه ، ويستمر فى سيره دائرا حول الأرض حتى يعود إلى موضعه ، ولا يزال يفعل هكذا أبد الدهر ، فاذا استطاع إنسان أن يخترع آلة من خواصها أن تقبض على هذا الشعاع التائه فى الفضاء ، أمكنها أن تتلقى صورة الشىء الذى انعكس منه ذلك الشعاع

وإذن فالأمر هين ، إذ اخترعت مرآة من معدن خاص لا يلتقط إلا الأشعة الضعيفة التى قضت فى سيرها فى الفضاء أو فى دوراتها حول الأرض آلاف السنين . ومن شأن هذه المرآة أنها لا تلتقط الأشعة القوية الطازجة ، فان تلك الأشعة تقفز عن سطحها قفزاً بغير أن تثبت قليلاً لتنعكس عليه ، فالذى ينظر إلى تلك المرآة لا يرى فيها شيئاً إلا إذا اتفق أن سقط عليها شعاع من تلك الأشعة المتعتقة التى تنم عن أشياء الماضى وحوادث الماضى ، كما أنها قد تلتقط أيضاً أشعة النجوم البعيدة إذا كانت لا تبلغ الأرض إلا معتقة أى بعد آلاف السنين من تركها كواكبها

أخذت هذه الآلة يوماً كعادتى كلما خرجت إلى نزهة وذهبت إلى جوار الأهرام لأجول حولها جولة ، ولما أتعبنى ذلك التجوال جلست أستريح على حجر من تلك الأحجار الضخمة التى قد انفرطت من عقدها ، ولم يكن معى كتاب أقطع الوقت بالقراءة فيه ، فأخرجت الآلة أنظر فيها وأقلبها فى يدى ، فقد عودتنى كلما نظرت فيها أن أجد صورة مسلية من صور الماضى إذ تلتقط شعاعاً من تلك الأشعة القديمة التى تقص على نبأ حديث قد مضت على وقوعه القرون الطويلة . ولكنها لم تحقق أملى عند ما نظرت فيها فلم أتزعج من ذلك ، وقلت إن الموضع الذى كنت فيه ليس مما تكثر به الأحداث والقصص . وجعلت أتأمل لون مائها وأحدق فى نكتة سوداء عند حافتها لا أقصد من وراء ذلك إلا العبث والتلهى . فلاح لى عند ذلك خيال يتحرك فيها وكان خيالاً ضئيلاً . فعلمت أن المرآة قد التقطت شعاعاً ، ولكنه شعاع قوى لم تمض عليه المدة الكافية لأضعافه وتعتيقه ، فجعلت أحدق فى المرآة حتى استطعت أن أتبين الصورة بشىء من الجلاء

رأيت الفضاء الذى حولى هضبة مستوية ليس عليها شىء غير كوم واحد ، فعلمت أن ذلك الشعاع يحمل صورة الهضبة قبل أن تبنى فيها الأهرام الصغرى وعند ما كان الهرم الأكبر لا يزال يبنى . وكان الهرم لم يبلغ بعد نصف علوه ، وكان يدور حوله جسر من التراب كالحلزون يتضايق كلما ارتفع ، وكان على ذلك الجسر ألوف من الناس بعضها صاعد وبعضها نازل تلوح فى الصورة كما يلوح النمل فى قرية من قراه تتماوج فى ترددها بين الجيئة والذهاب ، تارة تتقارب وأخرى تنتشر ، وتارة تجتمع وتارة تتفرق . ورأيت سموطاً من تلك الألوف قد اجتمع كل سمط منها عند حبل قد أخذ كل فرد بقبضة منه ، وكان وراء كل سمط جماعة فى أيديهم السياط فلا يكاد أحدهم يرى رجلاً قد استرخى فى عمل حتى يهوى عليه بالسوط ، فاذا به يقفز إلى الأمام وقد تشنجت عضلاته وأقبل على العمل عنيفاً ، وكان كل سمط من هذه السموط يجر بالحبل الذى اجتمع عليه حجراً ثقيلاً من تلك الحجارة الضخمة التى نراها اليوم فى بناء الهرم ، فلا يزال السمط يجر الحجر حتى يعلو به الجسر الدائر حول البناء ثم يصعد به جانب ذلك الجسر فيدور حوله صاعداً فى دورانه حتى يبلغ أعلى البناء فيقربه إلى حافة البناء ويضعه حيث يطلب البناؤون وضعه . فاذا ما بلغ الساكين الذين يجررون الحجر أعلى البناء ووضعوا الحجر وهم يلهثون من التعب انطرحوا على الأرض إعياء يطلبون بعض الراحة ويستردون النفس المنبت ، غير أنهم لا يكادون يلمسون الأرض بجنوبهم حتى تلحق بهم جماعة المراقبين فيهوون عليهم بالسياط يمزقون بها جلودهم . فيهب الأشقياء مرتاعين يتلوّون من ألم الضرب يجررون أرجلهم بما استطاعوا من السرعة ويهبطون إلى أسفل البناء لكى يعيدوا الكرة فينقلوا حجراً جديداً لبناء هرم فرعون

والحق لقد آذانى ذلك المنظر وتفظعته من شدة قسوته ، فهممت أن أضع الرآة حتى لا أرى بقيته ، لولا أننى رأيت شيئاً أخذ على انتباهى قسراً فلم أجد حيلة فى الانصراف عنه أو الانفلات منه . وذلك أننى بصرت بسمط من هذه السموط البشرية قد علا جانب الجسر سائراً فى خطاه الوئيدة يحرك حجراً جديداً نحو أعلى البناء ، غير أنه ما توسط الجسر حتى هبط عليه حجر أفلت من سمط فوقه إذ تقطعت الأحبال التى كان أصحابه يجرونه بها فوقع الحجر متدحرجاً فأصاب فى طريقه ذلك السمط الصاعد فدك جماعة منه دكاً وحطم أعضاء جماعة أخرى . فتفرق الناجون مرتاعين أيما ارتياع والموت الفظيع فى أعينهم الحائرة المذعورة ، وسمع صياحهم بعض أخوانهم فما هى إلا لحظة حتى اجتمع حول المكان ألوف من العمال مضطربين هلعين ، وفيما هم فى ذلك أقبل الرقباء وفى أيديهم السياط فأهووا عليهم من كل صوب لا يبالون أين يقع السوط منهم ، ففر البعض إلى أسفل وتردد البعض قليلاً ، ثم مضوا إلى أسفل فى شئ من التلكؤ ، وعادوا إلى حجارتهم يزحزحونها شبراً فشبراً نحو أعلى الهرم فانجلى المنظر عن بقية ضئيلة واقفة حول مكان الكارثة وعن رجل قد ارتمى على أحد الضحايا يبكيه ويطيع فيه قلباً محباً

تخيل إلىّ أنه أخ قعد ليرثى أخاه الفقيد ، أو صديق برح به الوجع عند ما رأى صديقه يختطف من بين الجموع على هذه الحال المؤلمة ، فارتمى عليه يبكيه ويؤدى اليه حق القلب الانسانى فى رثاء الصديق الحميم ؛ غير أن المقام لم يطل به على ذلك ، فقد عاد اليه الرقباء وفى أيديهم السياط ، فألهبوا ظهور من بقى حول المكان ، وأهووا اليه بالسوط فمزقوا ظهره العارى وهو مكب على جثة صاحبه ، فقفز الرجل من الألم ، وانتفض انتفاضة كأنما هو وحش استثير ، وأقبل على الذى ضربه من الرقباء ، فرفع هذا يده بالسوط ليعيد عليه الكرة فلم يمكنه من ذلك ، بل أسرع فى سطوة الغاضب وانتزع السوط من يده ثم علاه به مرتين ، ثم دفعه الى الارض فتدأدأ عليها ، وكان قريباً من حافة البناء فهوى فى الفضاء فلم يستقر إلا على سطح الهضبة بعد أن تهشم وتحطم . ثم وقف الرجل على حجر من أحجار البناء متحدياً سائر الرقباء ، فلم يجرؤ منهم أحد على الاقتراب منه ، وعاد الاضطراب الى مثل ما كان عليه ، وأسرع ألوف من العمال مرة أخرى نحو المكان ينظرون الى الحدث الجديد وينتهزون فرصة للراحة من عملهم المضنى . غير أنها لم تكن سوى مدة قصيرة ، فاذا الجمع يضطرب فى جانب من جوانبه ، ثم إذا بالاضطراب يسير خطوة خطوة بين الوقوف ، ثم إذا بالجمع ينفرج عن رجل شيخ يسير فى تؤدة ووقار ، وهو كلما سار فى جمع انفرج له وركع من حوله إجلالاً وخشوعاً ، فلقد كان ذلك هو كاهن القوم أتى بأمر الاله (رع) ، وأقبل بكلمة الحكمة من (تحوت) ، وكان يلبس ثوباً طويلاً يظهره من بين الجموع العارية ، وقد تدلت على صدره لحية طويلة بيضاء كاللبن ، وكان طويل القامة فى انحناء يسير بأعلى ظهره ، وعلى رأسه منديل يغطى شعره الى شحمتى أذنيه ، وقد لف حوله عصابة تمسك به حول الرأس . فلما صار على قيد ذراع من العامل الثائر وقف وحرك شفتيه ببعض القول ثم رفع يمناه بطيئاً نحو الرجل وتكلم كلمات أخرى ، غير أن الرجل وقف وقفته الأولى ولم يزل متحدياً ، وحرك شفتيه ببعض كلمات والغضب باد فى عينيه ، وجعل ينظر الى القوم الذين اجتمعوا حوله كأنه يستنصر بهم ، فنظر الكاهن الشيخ لحظة نحوه ، ثم نظر الى الألوف الواقفة حوله وتكلم ، وجعل يرفع يديه نحوهم فى تؤدة ووقار وهو يتكلم . فقضى على ذلك حيناً ، ثم وقف ونظر الى الجمع فاذا بحركة تبدأ فى الواقفين وتتزايد ، ثم ما هى إلا لحظة حتى كان الجمع مضطرباً يصيح رافعاً أيديه مهدداً غاضباً وهو متجه نحو الرجل المجرم المسكين . فرأيت العامل الشقى ينظر نحو من حوله وهم حانقون يتهددونه ويتوعدونه ، وعند ذلك لم يقو على المضى فى مقاومته ، بل داخله اليأس وتخاذل مضطرباً ، فنظر الكاهن اليه وجعل يتكلم بكلمات ويرفع يمناه مرة أخرى نحوه ، فرأيت العامل المسكين يمد يده بالسوط فيسلمه وينزل عن الحجر الذى كان واقفاً عليه ويتقدم فى ذلة وخشوع نحو الشيخ الكاهن

فتكلم الكاهن مرة أخرى ، ونظر نحو الجمع الزاخر حوله فى تؤدة ووقار ، ثم رفع يده نحوه ، فألقى الكل ساجدين ، ثم وقفوا خاشعين ، ونظروا الى الكاهن وهو يقبض على يد أخيهم الشقى ، ثم نظروا اليه وهو يسير به نحو حافة البنـــاء ويمصب عينيه ، وكانوا عند ذلك لا تتحرك منهم يد ، ولا تطرف